

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة العنكبوت مكية

الَّذِي أَحْسَبَ النَّاسَ أَنْ يُبْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ

(١٧)

الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجمل ألا ترى أنك لو قلت حسبت زيدياً وظننت الفرس لم يكن شيئاً حتى تقول: حسبت زيدياً عالماً، وظننت الفرس جواداً لأن قولك: زيد عالم أو الفرس جواد كلام دال على مضمون فأريت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتاً عندك على وجه الظن لا اليقين، فلم تجد بداً في العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه من نكر شطري الجملة مدخلاً عليهما فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك.

فإن قلت: فإين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان في الآية! قلت: هو في قوله: ﴿أَنْ يُبْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، وذلك أن تقديره أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا فالترك أول مفعولي حسب، ولقولهم آمنا هو الخبر وأما غير مفتونين فتتمة الترك لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصبير كقوله، فتركته جزر السباع ينشئه. ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول: تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا على تقدير حاصل ومستقر قبل الام.

فإن قلت: أن يقولوا هو علة تركهم غير مفتونين فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ؟ قلت: كما تقول: خروجه لمخافة الشر وضربه للتأنيب وقد كان التأنيب والمخافة في قولك: خرجت مخافة الشر، وضربته تأنيباً تعليلياً وتقول أيضاً: حسبت خروجه لمخافة الشر وظننت ضربه للتأنيب فتجعلها مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبراً.

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٢)

والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات والملاذ وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والاموال وبمصابرة الكفار على آثامهم وكيدهم وضرارهم والمعنى أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على السننهم وأظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين بل يمنحهم الله بضروب المحن حتى يبلوا صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم ونصوح نياتهم ليمتيز المخلص من غير المخلص والراسخ في الدين من المضطرب والمتمكن من العابد على حرف كما قال: ﴿لَتَبْلُوبُنَّ فِي

لمثيبك عليها ثواباً لا يحيط به الوصف و﴿لرناك﴾ بعد الموت ﴿إلى معاد﴾ أي: معاد وإلى معاد ليس لغيرك من البشر وتتكبير المعاد لذلك وقيل: المراد به مكة ووجهه أن يراد رده يوم الفتح ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك يوم معاداً له شأن ومرجعاً له اعتداداً لخلبة رسول الله ﷺ عليها، وقهره لاهلها ولظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه والسورة مكية فكان الله وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر به منها ويعيده إليها ظاهراً ظافراً وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره وقد اشتاق إلى مولده ومولد أبياته وحرم إبراهيم فنزل جبريل فقال له: اتشاق إلى مكة قال: نعم فأوحاها إليه.

فإن قلت: كيف اتصل قوله تعالى: ﴿قل ربي أعلم﴾ بما قبله! قلت: لما وعد رسوله الرد إلى معاد قال: قل للمشركين ربي أعلم من جاء بالهدى يعني نفسه وما يستحقه من الثواب في معاده ﴿ومن هو في ضلال مبين﴾ يعنيهم وما يستحقونه من العقاب في معادهم.

وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْ يُفْتَنَ إِلَيْكَ الْعَكْبَتُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ (١٧)

فإن قلت: قوله ﴿إلا رحمة من ربك﴾ ماجاء الاستثناء فيه قلت: هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك ويجوز أن يكون ﴿إلا﴾ بمعنى لكن للاستدراك أي ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك.

وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْبُكْرَةَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٧)

وقرى: ﴿يصدنك﴾ من أصدّه بمعنى صدّه وهي في لغة كلب وقال:

أناس أصبوا الناس بالسيف عنهم صود السواقي عن أنوف الحوائم

﴿بعد إذ أنزلت إليك﴾ بعد وقت إنزاله وإذ تضاف إليه أسماء الزمان كقولك: حينئذ وليلئذ ويومئذ وما أشبه ذلك.

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْفُكْرُ وَإِلَيْهِ رُجُوعُونَ (١٨)

والنهي عن مظاهرة الكافرين ونحو ذلك من باب التهبيح الذي سبق ذكره ﴿إلا وجهه﴾ إلا إياه والوجه يعبر به عن الذات. قال رسول الله ﷺ: من قرأ طسم القصص كان له من الأجر بعدد من صلق موسى، وكتب به ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقاً إن كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون<sup>(١)</sup>.

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، زيلعي 36/3.

الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون.

فإن قُلْتُمْ: أين مفعولا حسب؟ قُلْتُمْ: اشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سد مسد المفعولين كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾ ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وأم منقطعة، ومعنى الإضراب فيها: أن هذا الحسيبان أبطل من الحسيبان الأول لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه وهذا يظن أنه لا يجازي بمساويه ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بشس الذي يحكمونه حكمهم هذا أو بشس حكماً يحكمونه حكمهم هذا فحذف المخصوص بالذم.

مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّكِيمُ الْكَلِيمُ ﴿٥﴾

لقاء الله مثل للوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد اطلع مولاة على ما كان يأتي ويتر فإما أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضي من أفعاله أو بضد ذلك لما سخطه منها فمعنى قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ من كان يأمل تلك الحال وأن يلقى فيها الكرامة من الله، والبشر ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ وهو الموت ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة فليبادر العمل الصالح الذي يصدق رجاءه ويحقق أمله، ويكتسب به القرية عند الله والزلزلى ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء مما يقوله عباده ومما يفعلونه فهو حقيق بالتقوى والخشية وقيل: يرجو يخاف من قول الهنلي في صفة عسال، إذا لسعته الدبر لم يرج لسعاه.

فإن قُلْتُمْ: فإن أجل الله لآت كيف وقع جواباً للشرط؟ قُلْتُمْ: إذا علم أن لقاء الله عنيت به تلك الحال الممثلة والوقت الذي تقع فيه تلك الحال هو الأجل المضروب للموت فكانه قال: من كان يرجو لقاء الله فإن لقاء الله لآت لأن الأجل واقع فيه اللقاء كما تقول: من كان يرجو لقاء الملك، فإن يوم الجمعة قريب إذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة.

وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

﴿ومنجاهد﴾ نفسه في منعهما ما تأمر به وحملها على ما تأباه ﴿فإنما يجاهد﴾ لها لأن منفعة تلك راجعة إليها وإنما أمر الله عز وجل ونهى رحمة لعباده وهو الغني عنهم وعن طاعتهم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا كَامِلُونَ ﴿٧﴾

== بالكائن غير العلم بأن سيكون، والحق أن علم الله تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبلة وبعده على ما هو عليه، وفائدة نكر العلم هنا وإن كان سابقاً على وجود المعلوم التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء، كأنه قال تعالى: لنعلمنهم فلنجازينهم بحسب علمه فيهم والله أعلم.

أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴿١﴾ وروي أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد جزعوا من أذى المشركين، وقيل: في عمار بن ياسر وكان يعذب في الله وقيل: في ناس أسلموا بمكة فكتب إليهم المهاجرون ﴿ولا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا﴾ فخرجوا فاتبعهم المشركون فلوهم فلما نزلت كتبوا بها إليهم فخرجوا فاتبعهم المشركون، فقاتلوه فممنهم من قتل ومنهم من نجا وقيل: في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أول قتيل من المسلمين يوم بدر رماه عامر بن الحضرمي، فقال رسول الله ﷺ: سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة فجزع عليه أبواه وامراته ﴿٢﴾ ﴿ولقد فتنا﴾ موصول بأحسب أو بلا يفتنون كقولك: ألا يمتحن فلان وقد امتحن من هو خير منه يعني: أن أتباع الأنبياء عليهم السلام قبلهم قد أصابهم من الفتن والمحن نحو ما أصابهم، أو ما هو أشد منه فصبروا كما قال: وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير فما وهنوا الآية وعن النبي ﷺ قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما تون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ﴿٣﴾ ﴿فليعلمن الله﴾ بالامتحان ﴿الذين صدقوا﴾ في الإيمان ﴿وليعلمن الكافرين﴾ فيه.

فإن قُلْتُمْ: كيف وهو عالم بذلك فيما لم يزل؟ قُلْتُمْ: لم يزل يعلمه معدوماً ولا يعلمه موجوداً إلا إذا وجد ﴿٤﴾ والمعنى وليتميزن الصابق منهم من الكائب، ويجوز أن يكون وعداً ووعيداً كأنه قال: وليثيبن الذين صدقوا وليعاقبن الكافرين وقرأ عني رضي الله عنه والزهري، وليعلمن من الإعلام أي: وليعرفنهم الله الناس من هم أو ليسمنهم بعلامة يعرفون بها من بياض الوجوه وسوادها وكحل العيون وزرقاتها.

أَمْ سَيَبِئُ الَّذِينَ يَسْمُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُوتُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

﴿أن يسبقونا﴾ أن يفوتونا يعني: أن الجزاء يلحقهم لا محالة وهم لم يطمعوا في الفوت ولم يحثوا به نفوسهم، ولكنهم لغفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وإصرارهم على المعاصي في صورة من يقدر ذلك ويطمع فيه ونظيره وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا تحسبن

(1) سورة آل عمران، الآية: 186.

(2) قال الزيلعي: غريب 3/39، وحديث ابن أبي شيبه 77/14، كتاب: الأوائل باب: أول ما فعل الخ...

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة (الحيث رقم: 3612).

(4) قال أحمد: فيما نكر إيهام بمذهب فاسد، وهو اعتقاد أن العلم =

والاستقامة في الدين بنكر المرجع والوعيد. روى أن سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه حين أسلم قالت أمه وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس: يا سعد بلغني أنك قد صبات، فوالله لا بظلي سقف بيت من الضحّ والريح وإنّ الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد وكان أحد ولدها ليها فآبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الأحقاف، فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويترضاها بالإحسان<sup>(3)</sup> وروى أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام أخواه لأمه أسماء بنت مخزومة امرأة من بني تميم من بني حنظلة فنزلا بعياش وقالوا له: إنّ من دين محمد صلة الأرحام ويزرّ الوالدين، وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تاري بيتاً حتى تترك أشدّ حباً لك منا فأخرج معنا وقتلاً منه في الذروة والغارب فاستشار عمر رضي الله عنه، فقال: هما يخذعانك ولك عليّ أن أقسم مالي بيني وبينك فما زال به حتى اطاعهما وعصي عمر فقال له: عمر أما إذ عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها، فإن رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل: إنّ ناقتي قد كلت فاحملني معك قال: نعم، فنزل ليوطى لنفسه وله فأخذه وشدها وثاقاً وجلده كل واحد منهما مائة جلدة وذهب به إلى أمه فقالت: لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد، فنزلت<sup>(4)</sup>.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٤١﴾

﴿في الصالحين﴾ في جملتهم والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين وهو متمني أنبياء الله قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿وأنزلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾<sup>(5)</sup> وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾<sup>(6)</sup> أو في مدخل الصالحين وهي الجنة وهذا نحو قوله تعالى:

وَمِنَ الَّذِينَ مَنَ بِقَوْلِ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلٌ وَثِقَةٌ أَنتَ بِنَا  
كذّابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَهُ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ  
اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا  
وَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١٧﴾

إمّا أن يريد قومًا مسلمين صالحين قد أساؤا في بعض أعمالهم وسيئاتهم مغمورة بحسناتهم فهو يكفرها عنهم أي: يسقط عقابها بثواب الحسنات ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون أي: أحسن جزاء أعمالهم وإمّا قومًا مشركين آمنوا وعملوا الصالحات، فالله عزّ وجلّ يكفر سيئاتهم بأن يسقط عقاب ما تقدّم لهم من الكفر والمعاصي ويجزيهم أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام<sup>(1)</sup>.

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِنَّا لَمَرَّةً عَلَيْكَ يَا كَثُرَ تَمَلُّونَ ﴿٨﴾

وصى حكمه حكم أمر في معناه وتصرفه، يقال: وصيت زيداً بأن يفعل خيراً كما تقول: أمرته بأن يفعل ومنه بيت الإصلاح:

ونبيناية وصت بنبيها بان كذب القراطيف والقروف

كما لو قال: أمرتهم بأن ينتهبوها ومنه قوله تعالى: ﴿ووصى بها إبراهيم بنبيه﴾<sup>(2)</sup> أي: وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها وقولك: وصيت زيداً بعمره معناه وصيته بتعهد عمره ومراعاته ونحو ذلك، وكذلك معنى قوله: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ وصيناه بإيتاء والديه حسناً أو بإيلاء والديه حسناً أي: فعلا ذا حسن أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ وقرئ: حسناً وإحساناً، ويجوز أن تجعل حسناً من باب قولك: زيداً بإضمار اضرب إذا رأيت متعباً للضرب فتصبيه بإضمار أولهما أو أفعال بهما لأنّ التوصية بهما دالة عليه وما بعده مطابق له كأنه قال قلنا: أولهما معروفاً و﴿فلا تطعهما﴾ في الشرك إذا حملك عليه وعلى هذا التفسير إن وقف على بوالديه، وابتداء حسناً حسن الوقف وعلى التفسير الأول لا بدّ من إضمار القول معناه: وقلنا إن جاهدك أيها الإنسان ﴿ما ليس لك به علم﴾ أي: لا علم لك بالهبة والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال: لتشرك بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم وصاه بوالديه وأمره بالإحسان إليهما ثم نبه بنهيه عن طاعتها إذا أراداه على ما ذكر على أن كل حق وإن عظم ساقط إذا جاء حق الله وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم قال إلى: مرجع من آمن منكم ومن أشرك فأجازيكم حق جزائكم، وفيه شيثان أحدهما أن الجزاء إليّ فلا تحنث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما ولا تحرمهما بركٍ ومعروفك في الدنيا كما أتى لا أمنعهما رزقي والثاني التحذير من متابعتهم على الشرك والحنث على الثبات

(3) قال الزيلعي غريب بهذا اللفظ، والقصة عند مسلم، كتاب: الفضائل (4) 40/3 وكره الواحد في أسباب النزول ص 193 - 194.

(4) راجع الحديث 381، سورة النساء.

(5) سورة النمل، الآية: 19.

(6) سورة العنكبوت، الآية: 27.

(1) قال أحمد: حجر واسعاً من رحمة الله تعالى بناء على أصله الفاسد في وجوب الوعيد على مرتكب السيئات الكبائر، إلا بالتوبة، وأطلق تكفير الصغائر، وإن لم تكن توبة إذا غمرتها الحسنات، وكلا الأصلين قدرى مجتنب والله الموفق.

(2) سورة البقرة، الآية: 132.

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾<sup>(1)</sup> الآية هم ناس كانوا يؤمنون بالسنتهم فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس كان ذلك صارفاً لهم عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفاً. وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا: ﴿إنا كنا معكم﴾ أي: مشايعين لكم في دينكم ثابتين عليه ثباتكم ما قدر أحد أن يفتننا فأعطونا نصيبنا من المغنم، ثم أخبر سبحانه أنه أعلم ﴿بما في صدور العالمين﴾ من العالمين بما في صدورهم ومن ذلك ما تكن صدور هؤلاء من النفاق وهذا اطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين وقرئ: ليقولن بفتح اللام.

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧﴾

﴿وليحملن أثقالهم﴾ أي: أثقال أنفسهم ﴿وإثقالاً﴾ يعني: أثقالاً آخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها وهي أثقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم ﴿وليسئلن﴾ سؤال تقرير ﴿عما كانوا يفعلون﴾ أي: يختلقون من الأكاذيب والأباطيل. وقرئ: من خطياتهم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَتِيبَ عَامًا فَاخَذَهُمْ السُّلُوكَاتُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿٨﴾

كان عمر نوح عليه السلام ألفاً وخمسين سنة بعث على رأس أربعين وليث في قومه تسعمائة وخمسين وعاش بعد الطوفان ستين وعن وهب أنه عاش ألفاً وأربعمائة سنة. فإن قلت: هلا قيل: تسعمائة وخمسين سنة! قلت: ما أورده الله حكماً لأنه لو قيل: كما قلت لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك<sup>(3)</sup> وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد إلا أن ذلك أخصر وأعذب لفظاً وأملاً بالفائدة وفيه نكتة أخرى وهي: أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته، وما كابدته من طول المصابرة تسلياً لرسول الله ﷺ وتشبيهاً له فكان نكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع، وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره.

فإن قلت: فلم جاء المميز أولاً بالسنة وثانياً بالعام؟ قلت: لأن تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم، أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك و﴿الطوفان﴾ ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما قال العجاج، وغم طوفان الظلام الأثاب.

فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا سَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي حَمْدِهِ وَأَسْمَاءِ السَّمَوَاتِ وَجَمَانَتِهَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴿٩﴾

﴿أصحاب السفينة﴾ كانوا ثمانية وسبعين نفساً

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾<sup>(1)</sup> الآية هم ناس كانوا يؤمنون بالسنتهم فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس كان ذلك صارفاً لهم عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفاً. وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا: ﴿إنا كنا معكم﴾ أي: مشايعين لكم في دينكم ثابتين عليه ثباتكم ما قدر أحد أن يفتننا فأعطونا نصيبنا من المغنم، ثم أخبر سبحانه أنه أعلم ﴿بما في صدور العالمين﴾ من العالمين بما في صدورهم ومن ذلك ما تكن صدور هؤلاء من النفاق وهذا اطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين وقرئ: ليقولن بفتح اللام.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا كُنَّا بِمُعَظَّمِيكُم مِّنْ خَلْقٍ لَّيْسَ مِن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠﴾

أمروهم باتباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم أمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر وأرادوا ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبوعوا سبيلنا وأن تحمل خطاياكم والمعنى: تعليق الحمل بالاتباع وهذا قول: صنائيد قريش كانوا يقولون لمن آمن منهم لا نبعث نحن ولا أنتم فإن عسى كان ذلك فإننا نتحمل عنكم الإثم، ونرى في المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه: إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم أفلعل هذا وإثمه في عتقي وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفه العامة وجهلهم ومنه ما يحكى أن أبا جعفر المنصور رفع إليه بعض أهل الحشو حوائجه فلما قضاها قال: يا أمير المؤمنين بقيت الحاجة العظمى قال: وما هي قال: شفاعتك يوم القيامة فقال له عمرو بن عبيد رحمة الله إياك وهؤلاء فإنهم قطاع الطريق في المامن<sup>(2)</sup>.

فإن قلت: كيف سماهم كاذبين وإنما ضمنوا شيئاً علم الله أنهم لا يقدرين على الوفاء به وضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به لا يسمى كاذباً لا حين ضمن ولا حين عجز؛ لأنه في الحالين لا يدخل تحت حد الكاذب، وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه! قلت: شبهه الله حالهم حيث علم

(3) قال أحمد: لأن الاستثناء استدراك ورجوع على الجملة بالتقصيص تحريراً للعدد فلا يحتمل المبالغة؛ لأنها لا يجوز معها العدد. عاد كلامه قال: وفيه نكتة أخرى، وهي: أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح، وكابده من طول المصابرة تسلياً له عليه السلام، فكان نكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع على الغرض. قال: وإنما خالف بين اللغظين، فذكر في الأول السنة، وفي الثاني العام تجنباً للتكرار الذي لا يحمد إلا لقصد تفخيم أو تعظيم. قال أحمد: ولو فخم المستثنى لعاد ذلك ببعض تفخيم المستثنى منه وتكبيره عند السامع، والله أعلم.

(1) سورة النساء، الآية: 69.  
(2) قال أحمد: عمرو بن عبيد أول القدرية المنكرين للشفاعة فاحذرهم، وليست إلا آية مطابقة للحكاية، ولكن الرمز مخشري يبني على أنه لا فرق بين اعتقاد الشفاعة واعتقاد أن الكفار يحملون خطايا اتباعهم، فلذلك ساقتهما مساقاً واحداً تعود بالله من ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿إنهم لكاذبون﴾ نكتة حسنة يستدل به على صحة مجيء الأمر بمعنى الخير، فإن من الناس من أنكره والتزم تخريب جميع ما ورد في ذلك على أصل الأمر، ولم يتم له ذلك في هذه الآية؛ لأن الله تعالى أرفق قلوبهم ولنحمل خطاياكم على صيغة الأمر بقوله: ﴿إنهم لكاذبون﴾ والتكذيب إنما يتطرق إلى الإخبار.

الرسول فقد تم أمره حين بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشك وهو اقتترانه بآيات الله ومعجزاته، أو وإن كنت مكذباً فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة وسلوة حيث كذبوا وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله: فما كان جواب قومه محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم صلوات الله عليه لقومه: وأن تكون آياتنا وقعت معترضة في شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم وأخرها.

فإن قلت: إذا كانت من قول إبراهيم: فما المراد بالأمم قبله! قلت: قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم وكفى بقوم نوح أمة في معنى أم جمة مكذبة ولقد عاش إدريس ألف سنة في قومه إلى أن رفع إلى السماء وآمن به ألف إنسان منهم علي عند سنه وأعقابهم على التكذيب.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿قل سيروا في الأرض﴾! قلت: هي حكاية كلام حكاة إبراهيم عليه السلام لقومه كما يحكى رسولنا ﷺ كلام الله على هذا المنهاج في أكثر القرآن.

فإن قلت: فإذا كانت خطاباً لقريش فما وجه توسطهما بين طرفي قصة إبراهيم والجملة، أو الجملة الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه الا تراك لا تقول: مكة وزيد أبوه قائم خير بلاد الله قلت: إيراد قصة إبراهيم ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول الله ﷺ وأن تكون مسلاة له ومتفرجاً بأن أباه إبراهيم خليل الله كان ممنوا بنحو ما منى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان فاعترض بقوله: ﴿وإن تكذبوا﴾ على معنى أنكم يا معشر قريش إن تكذبوا محمداً فقد كذب إبراهيم قومه، وكل أمة نبيها لأن قوله: ﴿فقد كذب أمم من قبلكم﴾ لا بد من تناوله لأمة إبراهيم وهو كما ترى اعتراض واقع متصل، ثم سائر الآيات الواطئة عقبها من أنبيالها وتوابعها لكونها ناطقة بالتحديد دلالة وهم الشرك وتوهين قواعده وصفة قدرة الله وسلطانه ووضوح حجته وبرهانه.

أولم يرؤا كيف بيئ الله الخلق ثم بيئهم إن ذلك على الله يسير ﴿١٧﴾.

قرئ يروا بالياء والتاء ﴿ويبيد﴾ ويبدأ وقوله: ﴿ثم يعيده﴾ ليس بمعطوف على بيئهم وليست الرواية واقعة عليه، وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر في قوله تعالى: ﴿فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾<sup>(1)</sup> على البدء بكون الإنشاء ونحوه قولك: ما زلت أوتر فلاناً وأستخلفه على من أخلفه<sup>(2)</sup>.

نصفهم نكور ونصفهم إناث منهم: أولاد نوح عليه السلام سام وحام ويافث ونسأؤهم وعن محمد بن إسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة، وقد روي عن النبي ﷺ كانوا ثمانية نوح وأهله وبنيه الثلاثة والضمير في ﴿وجعلناها﴾ للسفينة أو للحادثة والقصة، نصب.

وإزويبه إذ قال ليزيمه أعيدوا الله وأتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿١٧﴾.

﴿إبراهيم﴾ بإضمار انكر وأبدل عنه ﴿إذ﴾ بدل الاشتمال لأن الأحيان تشتمل؛ على ما فيها أو هو معطوف على نوحاً وإذ ظرف لأرسلنا يعني: أرسلناه حين بلغ من السن والعلم مبلغاً صلح فيه لأن يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى، وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رحمهما الله وإبراهيم بالرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم ﴿إن كنتم تعلمون﴾ يعني: إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم أو إن نظرتهم بعين الدراية المبصرة نون عين الجهل العمياء علمتم أنه خير لكم.

إنما تبدون من دون الله أوتننا وتخلون إنكنا إن الذين تبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتنوا عند الله الرزق وأعبدوه وأشكروا لله إليه ترجعون ﴿١٨﴾.

وقرى: ﴿تخلقون﴾ من خلق بمعنى التكاثر في خلق وتخلقون من تخلق بمعنى تكذب وتخرض.

وقرى: ﴿إفكاً﴾ فيه وجهان: أن يكون مصدرًا نحو كذب ولعب والإفك مخفف منه كالكذب واللعب من أصلهما أن يكون صفة على فعل أي: خلقاً إفكاً أي ذا إفك وباطل واختفلام الإفك تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله أو شفعاء إليه أو سمى الأصنام ﴿إفكاً﴾ علمهم ولها ونحتهم خلقاً للإفك.

فإن قلت: لم نكر الرزق ثم عرفه؟ قلت: لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوك شيئاً من الرزق، فابتنوا عند الله الرزق كله فإنه هو الرزاق وحده لا يرزق غيره ﴿إليه ترجعون﴾.

وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا أبلغ الأبرئ ﴿١٨﴾.

وقرى بفتح التاء فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه وإن تكذبوني فلا تضرونني بتكذيبهم فإن الرسل قبلي قد كذبتم أمهم وما ضرهم وإنما ضرروا أنفسهم حيث حل بهم ما حل بسبب تكذيب الرسل وأما

(1) سورة العنكبوت، الآية: 20.

(2) قال أحمد: وقد تقدم له عند قوله تعالى: ﴿ومن بيئ الخلق ثم يعيده﴾ أنه معطوف، وصحح العطف، وإن كانوا ينكرون الإعادة؛ لأن الاعتراف بها لازم لهم، وقد أبى ههنا جعله معطوفاً، فالفرق والله أعلم أنه ههنا لو عطف الإعادة على البداية لخلت في الرواية =

= الماضية، وهي لم تقع بعد ولا كذلك في آية النمل، ولقائل أن يقول: هي وإن لم تقع إلا أنها بإخبار الله تعالى بوقوعها كالواقعة المرثية، فعملت معاملة ما روي وشوهد إلا أن جعله خبراً ثانياً أوضح والله أعلم.

الأرض وأعماقها أو علوتهم في البروج والقلاع الذاهب في السماء كقوله تعالى: ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ (4) أو لا تعجزون أمره الجاري في السماء والأرض أن يجري عليكم، فيصيبكم ببلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء.

وَأَلْوَيْتَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٧﴾.

﴿بآيات الله﴾ بدلائله على وحدانيته، وكتبه ومعجزاته ولقائه والبعث ﴿يئسوا من رحمتي﴾ وعيد أي يياسون يوم القيامة كقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ (5). أو هو وصف لحالهم لأن المؤمن إنما يكون راجياً خاشعاً فاما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف أو شبه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يس من الرحمة وعن قتادة رضي الله عنه أن الله ذم قومًا هانوا عليه فقال: ﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾، وقال: إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون فينبغي للمؤمن أن لا يئس من روح الله ولا من رحمته، وأن لا يئس من عذابه وعقابه صفة المؤمن أن يكون راجياً لله عز وجل خاشعاً.

مَا كَانَ حِزَابٌ قَوْمِيهِ إِذْ أَن قَالُوا أَفَنُتَلَّهِ أَوْ حَرَفُوهُ فَأَجَنَّهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٨﴾.

قريء ﴿جواب قومه﴾ بالنصب والرفع ﴿قالوا﴾ قال: بعضهم لبعض، أو قاله: واحد منهم وكان الباقون راضين فكانوا جميعاً في حكم القائلين، وروي أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار يعني: يوم القيامة إبراهيم في النار وذلك لذهاب حرها.

وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرٍ ﴿٢٩﴾.

قريء على النصب بغير إضافة وبإضافة وعلى الرفع كذلك فالنصب على وجهين على التعليل أي: لتتوانوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها واتلافكم كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصلقهم وأن يكون مفعولاً ثانياً كقوله: ﴿اتخذ إلهه هواه﴾ (6) أي: اتخذتم الأوثان سبب المودة بينكم على تقدير حذف المضاف أو اتخذتموها مودة بينكم بمعنى مودة بينكم كقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله﴾ (7) وفي الرفع وجهان أن يكون خبراً لأن على أن ما موصولة وأن يكون خبر

فإن قلنت: هو معطوف بحرف العطف فلا بد له من معطوف عليه فما هو؟ قلنت: هو جملة قوله: ﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق﴾، وكذلك وأستخلفه معطوف على جملة قوله ما زلت أوتر فلاناً ﴿نلك﴾ يرجع إلى ما يرجع إليه هو في قوله: وهو أهون عليه من معنى يعيد دل بقوله:

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾.

﴿النشأة الآخرة﴾ على أنهما نشأتان، وإن كل واحد منهما إنشاء أي: ابتداء واختراع وإخراج من العدم إلى الوجود لا تفاوت بينهما إلا أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله والأولى ليست كذلك، وقريء ﴿النشأة﴾ والنشأة كالرأفة والرأفة.

فإن قلنت: ما معنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله: ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ (1) بعد إضماره في قوله: كيف بدأ الخلق وكان القياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة؟ قلنت: الكلام معهم كان واقعاً في الإعادة وفيها كانت تصطك الركب فلما قرره في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء فهو الذي يجب أن لا تعجزه الإعادة فكانه قال: ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الأولى (2) هو الذي ينشئ النشأة الآخرة فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ.

يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٣١﴾.

﴿يعذب من يشاء﴾ تعنيبه ﴿ويرحم من يشاء﴾ رحمته ومتعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن، وهو من يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا ومن المعصوم والتائب ﴿تقلبون﴾ تردون وترجعون. وما أشدُّ يمجيزون في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿٣٢﴾.

﴿وما أنتم بمعجزين﴾ ريبك أي: لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿في الأرض﴾ الفسيحة ﴿ولا في السماء﴾ التي هي أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها كقوله تعالى: ﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا﴾ (3) وقيل: ولا من في السماء كما قال حسان رضي الله عنه:

أمن يهجر رسول الله منكم ويمسحه وينصره سواء ويحتمل أن يراد لا تعجزونه كيفما هبطم في مهاوي

(4) سورة النساء، الآية: 78.

(5) سورة الروم، الآية: 12.

(6) سورة الفرقان، الآية: 43.

(7) سورة البقرة، الآية: 165.

(1) سورة العنكبوت، الآية: 20.

(2) قال أحمد: والأصل الإظهار، ثم الإضمار، ويليه لقصد التخييم الإظهار بعد الإظهار، ويليه وهو أخم الثلاثة الإظهار بعد الإضمار، كما في الآية والله أعلم.

(3) سورة الرحمن، الآية: 33.

الثاني بحرفين الباء والنون.

أَيْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطُرُونَ السَّيْلَ وَتَأْتُونَ فِي نَكَاحِكُمْ  
الْمُنْكَرَ مِمَّا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ  
إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾.

وقطع السبيل عمل قطاع الطريق من قتل النفس وأخذ  
الأموال وقيل: اعتراضهم السابلية بالفاحشة وعن الحسن  
قطع النسل بإتيان ما ليس بحرح و ﴿المنكر﴾ عن ابن  
عباس رضي الله عنهما هو الخذف بالحصي والرمي  
بالبناتق والفرقة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل  
الأزرار والسباب والفحش في المزاج، وعن عائشة رضي الله  
عنها كانوا يتحابقون وقيل: السخرية بمن مر بهم وقيل:  
المجاهرة في ناديتهم بذلك العمل وكل معصية، فإظهارها  
أقبح من سترها ولذلك جاء من خرق جلباب الحياة فلا غيبة  
له ولا يقال: للمجلس ناد إلا ما دام فيه أهله، فإذا قاموا  
عنه لم يبق نادياً ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما تعدناه  
من نزول العذاب.

قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٢﴾.

كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من  
المعاصي والفواحش طوعاً وكرهاً ولأنهم ابتدعوا الفاحشة  
وسنوها فيمن بعدهم وقال الله تعالى: ﴿الذين كفروا  
وصنّوا عن سبيل الله﴾ (2) زنداهم عذاباً فوق العذاب بما  
كانوا يفسدون، فأراد لوط عليه السلام أن يشتد غضب الله  
عليهم، فنكر لذلك صفة المفسدين في دعائه.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ  
الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَُوا ظَالِمِينَ ﴿٣٣﴾.

﴿بالبشرى﴾ هي البشارة بالولد والنافلة هما إسحق  
ويعقوب، وإضافة مهلكو إضافة تخفيف لا تعريف والمعنى  
لاستقبال القرية سدوم التي قبل فيها أجور من قاضي  
سدوم ﴿كانوا ظالمين﴾ معناه: أن الظلم قد استمر منهم  
إيجاده في الأيام السالفة وهم عليه مصرور وظلمهم  
كفرهم واللوان معاصيهم.

قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لُوطٌ فَأَلْوَا نَحْنُ أَعْرَبُ بَيْنَ يَدَيْكَ لَتُنَجِّيَنَّ وَأَهْلَهُ  
إِلَّا أَمْرًا تُهَمُّ كَانَتْ مِنَ الَّذِينَ ﴿٣٤﴾.

﴿إن فيها لوطاً﴾ ليس إخباراً لهم بكونه فيها وإنما هو  
جدال في شأنه لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم  
اعترض عليهم بأن فيها من هو بريء من الظلم، وأراد  
بالجدال إظهار الشفقة عليهم وما يجب للمؤمن من التحزن  
لأخيه والتشمر في نصرته وحياطته والخوف من أن يمسّه  
أذى، أو يلحقه ضرر قال: قتادة لا يرى المؤمن ألا يحوط  
المؤمن ألا ترى إلى جوابهم بأنهم أعلم منه ﴿بمن فيها﴾

مبتداً محذوف والمعنى: أن الأوثان مودة بينكم أي: موبدة  
أو سبب مودة وعن عاصم مودة بينكم بفتح بينكم مع  
الإضافة، كما قرئ لقد تقطع بينكم ففتح وهو فاعل وقرأ  
ابن مسعود رضي الله عنه أوثاناً إنما مودة بينكم في  
الحياة الدنيا أي: إنما تتواون عليها أو تودونها في الحياة  
الدنيا ﴿ثم يوم القيامة﴾ يقوم بينكم التلاعن والتباغض  
والتعادي يتلاعن العبد ويتلاعن العبد، والأصنام كقوله  
تعالى: ﴿ويكونون عليهم صدّاً﴾ (1).

فَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِإِيْمَانٍ إِلَىٰ مِهَاجِرٍ إِلَىٰ رَبِّهِ إِنَّهُ هُوَ الْمَرْزُوقُ  
الْمَكِيدُ ﴿٣٥﴾.

كان لوط ابن أخت إبراهيم عليهم السلام وهو أول من  
أمن له حين رأى النار لم تحرقه ﴿وقال﴾ يعني: إبراهيم  
﴿إني مهاجر﴾ من كوثي وهي من سواد الكوفة إلى حران  
ثم منها إلى فلسطين ومن ثمة قالوا: لكل نبي هجرة  
وإبراهيم هجرتان وكان معه في هجرته لوط وامراته  
سارة وهاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ﴿إلى ربي﴾  
إلى حيث أمرني بالهجرة إليه ﴿إنه هو العزيز﴾ الذي  
يمنعني من أعدائي ﴿الحكيم﴾ الذي لا يأمري إلا بما هو  
مصلحتي.

وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ  
وَأَيَّدْنَا أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٦﴾.

﴿أجره﴾ الثناء الحسن والصلاة عليه آخر الدهر  
والذرية الطيبة والنبوة وإن أهل الملل كلهم يتولونه.  
فإن قلّت: ما بال إسماعيل عليه السلام لم ينكر ونلك  
إسحق وعقبة! قلّت: قد دل عليه في قوله: ﴿وجعلنا في  
ذريته النبوة والكتاب﴾ وكفى الدليل لشهرة أمره وعلو  
قدره.

فإن قلّت: ما المراد بالكتاب! قلّت: قصد به جنس الكتاب  
حتى نخل تحته ما نزل على ذريته من الكتب الأربعة التي  
هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ أَفْجَسُ مَا سَبَقَكُمْ  
بِهَذَا مِنْ آخِرِ بَنِي آدَمَ الَّذِينَ ﴿٣٧﴾.

﴿ولوطاً﴾ معطوف على إبراهيم أو على ما عطف عليه  
و﴿الفاحشة﴾ الفعلة البالغة في القبح و﴿وما سبقكم بها  
من أحد من العالمين﴾ جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك  
الفعلة كان قائلها قال: لم كانت فاحشة، فقيل له لأن أحداً  
قبلهم لم يقدم عليها لشمئزازاً منها في طباعهم لإفراط  
قبحها حتى أقدم عليها قوم لوط لخبث طبيعتهم وقدر  
طباعهم قالوا: لم ينزل نكر على نكر قبل قوم لوط قط.  
وقرئ ﴿إنكم﴾ بغير استفهام في الأول نون الثاني قال:  
أبو عبيد وجنته في الإمام بحرف واحد بغير ياء ورأيت

(2) سورة محمد، الآية: 1.

(1) سورة مريم، الآية: 82.



دينًا عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون.

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾

والجوارح فقد روى عن حاتم كأن رجلي على الصراط والجنة عن يعيني والنار عن يساري وملك الموت من فوقي وأصلي بين الخوف والرجاء، ثم يحوطها بعد أن يصلها فلا يحبطها فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من لم تامره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزد بصلاته من الله إلا بعداً<sup>(5)</sup>، وعن الحسن رحمه الله: من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهي وبال عليه، وقيل: من كان مراعيًا للصلاة جزه ذلك إلى أنه ينتهي عن السيئات يومًا ما، فقد روي أنه قيل: لرسول الله ﷺ إن فلانًا يصلي بالنهار ويسرق بالليل فقال: «إن صلاته لتردعه، وروى: أن فتى من الأنصار كان يصلي معه الصلوات، ولا يدع شيئًا من الفواحش إلا ركه فوصف له فقال: إن صلاته ستنتهاه فلم يلبث أن تاب<sup>(6)</sup> وعلى كل حال إن المراعي للصلاة لا بد أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها وأيضًا فكم من مصليين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر واللفظ لا يقتضي أن لا يخرج واحد من المصليين عن قضيتها كما تقول: إن زيدًا ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكير، وإنما تريد أن هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم ﴿ولنذكر الله أكبر﴾ يريد للصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسماها بذكر الله كما قال:

﴿فاسعوا إلى نكر الله﴾<sup>(7)</sup> وإنما قال: ولنذكر الله ليستقل بالتعليل كانه قال: وللصلاة أكبر لأنها نكر الله أو ولنكر الله عند الفحشاء والمنكر ونكر نهيها عنهما ووعيده عليهما أكبر، فكان أولى بان ينهى من اللطف الذي في الصلاة وعن ابن عباس رضي الله عنهما ولنكر الله إياكم برحمته أكبر من نكركم إياه بطاعته ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ من الخير والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب.

﴿وَلَا تُحَدِّثُوا أَخْبَارَ الْكَذِبِ إِلَّا بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَوَلَوْأَءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِنَّا وَنَزَّلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَجِدْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٨)</sup>

﴿بالتي هي أحسن﴾ بالخصلة التي هي أحسن وهو مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والسورة بالأناة كما قال: ﴿ادفع بالتتي هي أحسن﴾ ﴿إلا الذين ظلموا﴾ فاقربوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق، فاستعملوا معهم الغلظة وقيل: إلا الذين أنوا رسول الله ﷺ وقيل: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك، وقالوا: يد الله مغلولة وقيل: معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمة

قري: ﴿تدعون﴾ بالياء وهذا تأكيد للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئًا ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ فيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس بشيء لأنه جماد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلًا وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء الحكيم الذي لا يفعل شيئًا إلا بحكمة وتبدير. كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك فلذلك قال:

وَبِذَلِكَ الْأَمْثَلُ نُضَرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٣﴾

﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ أي: لا يعقل صحتها وحسنها، وفائدتها إلا هم لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار حتى تبرزها وتكشف عنها، وتصورها للأفهام كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد وعن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه»<sup>(٩)</sup>.

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

﴿بالحق﴾ أي: بالغرض الصحيح<sup>(١٠)</sup> الذي هو حق لا باطل وهو أن تكونا مساكين عباده وعبدة للمعتبرين منهم ودلائل على عظم قدرته ألا ترى إلى قوله: ﴿إن في ذلك آية للمؤمنين﴾ ونحوه قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا﴾<sup>(١١)</sup> ثم قال: ذلك ظن الذين كفروا.

أَتَلَّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأُولَئِكَ الْمَكَلُوفَةُ إِلَى الْمَكَلُوفَةِ تَنَعَنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَذَكَرَ اللَّهُ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾

الصلاة تكون لطفًا في ترك المعاصي فكانها ناهية عنها.

فإن قلنت: كم من مصلي يرتكب ولا تنه صلاته؟ قلنت: الصلاة التي هي الصلاة عند الله المستحق بها الثواب أن يدخل فيها مقدمًا للتوبة النصوح متقيا لقوله تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾<sup>(١٢)</sup> ويصلها خاشعًا بالقلب

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصلوات، فصل في تحسين الصلاة، والإكثار منها، (حديث: 3262).

(6) قال الزبيدي غريب، 46/3.

(7) سورة الجمعة، الآية: 9.

(1) نكره الثعلبي والواحد في التفسير وابن الجوزي في الموضوعات، 43/3.

(2) قال أحمد: لفظة قنرية ومعتمد ردي.

(3) سورة ص، الآية: 27.

(4) سورة المائدة، الآية: 27.

ليس بمعجزين وهذا المنزل معجز فإذا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا به وهو أمي ومبطلون لو لم يؤمنوا به وهو غير أمي.

فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿بِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؟ قلت: نكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط زيادة تصوير لما نفى عنه من كونه كاتباً إلا ترى أنك إذا قلت في الإثبات رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه كان أشد لإثباتك أنه تولى كتيبه.

بَلْ هُمْ بَائِسَاتٌ لِّبَيِّنَاتٍ مِّنْ دُونِ الْآيَاتِ أَوْ نَوَىٰ أَعْيُنُهُمْ أَنِ يُعَيِّنُوا سُبُلَ الْبَيِّنَاتِ إِلَّا أَتَيْنَهُنَّ لَمَّا حَسِبْنَهُنَّ كَالْعُنُكُبُوتِ ﴿١٧﴾

فكذلك النفي ﴿بَلْ﴾ القرآن. ﴿آيات بينات في صدور العلماء به وحفاظه، وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز وكونه محفوظاً في الصدور يتلوه أكثر الأمة ظاهراً بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات، وما كانت تقرا إلا من المصاحف ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة صدورهم أناجيلهم<sup>(4)</sup> ﴿وما يجحد﴾ بآيات الله الواضحة إلا المتوغلون في الظلم المكابرون.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِّنْ رَبِّهِ لَأَكْفُرْنَا بِاللَّهِ وَإِنَّمَا تَأْوِيْنُهُمْ فِي الْوَعْدِ أَنَّ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ ﴿١٨﴾

قري آية وآيات أرادوا هلا أنزل عليه آية مثل ناقة صالح ومائدة عيسى عليهما السلام ونحو ذلك ﴿إنما الآيات عند الله﴾ ينزل أيتها شاء ولو شاء أن ينزل ما تقرحونه لفعل ﴿وإنما أنا نذير﴾ كلفت الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات وليس لي أن أخير على الله آياته فأقول أنزل علي آية كذا نون آية كذا مع علمي أن الغرض من الآية ثبوت الدلالة والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك ثم قال:

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾

﴿أولم يكفهم﴾ آية مغنية عن سائر الآيات إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين هذا القرآن الذي تنوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضحل كما تزول كل آية بعد كونها وتكون في كل مكان نون مكان، إن في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿لرحمة﴾ لنعمة عظيمة لا تشكر، وتنكرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ وقيل: ﴿أولم يكفهم﴾ يعني اليهود أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك وقيل: إن ناساً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ بكتف قد كتبوا فيها بعض ما

المؤيّن للجزية ﴿إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا﴾ فنبتوا الذمة، ومنعوا الجزية فإن أولئك مجاللتهم بالسيف وعن قتادة الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾<sup>(1)</sup> ولا مجاللة أشد من السيف، وقوله: ﴿قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا﴾ من جنس المجادلة بالتي هي أحسن وعن النبي ﷺ: ﴿ما حنتكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان باطلاً لم تصدقوهم وإن كان حقا لم تكذبوهم﴾<sup>(2)</sup>، ومثل ذلك الإنزال.

وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٢٠﴾

﴿أنزلنا إليك الكتاب﴾ أي: أنزلناه مصنفًا لسائر الكتب السماوية تحقيقاً لقوله: ﴿آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليك﴾<sup>(3)</sup> وقيل: وكما أنزلنا الكتب إلى من كان قبلك أنزلنا إليك الكتاب ﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾ هم: عبد الله بن سلام ومن آمن معه ﴿ومن هؤلاء﴾ من أهل مكة وقيل: أراد بالذين أتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب ومن هؤلاء ممن في عهده منهم ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ مع ظهورها وزوال الشبهة عنها إلا المتوغلون في الكفر المصممون عليه وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

وَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُمُ بِبَيِّنَاتِكُمْ إِذْ أَنْزَلْنَا الْبُحُورَ ﴿٢١﴾

وإست أمي ما عرفك أحد قط بتلاوة كتاب ولا خط ﴿إذا﴾ لو كان شيء من ذلك أي: من التلاوة والخط ﴿لارتاب المبطلون﴾ من أهل الكتاب وقالوا: الذي نجده في كتبنا أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به أو ﴿لارتاب﴾ مشركوا مكة وقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده.

فن قلت: لم سماهم مبطلين ولو لم يكن أمياً وقالوا: ليس بالذي نجده في كتبنا لكنوا صابقين محقين ولكن أهل مكة أيضاً على حق في قولهم: لعله تعلمه أو كتبه فإنه رجل قارئ كاتب! قلت: سماهم مبطلين لأنهم كفروا به وهو أمي بعيد من الريب فكانه قال هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أمياً لارتابوا أشد الريب، فحين ليس بقارئ كاتب فلا وجه لارتبابهم وشيء آخر وهو أن سائر الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا أميين ووجب الإيمان بهم وبما جاؤا به لكونهم مصدقين من جهة الحكيم بالمعجزات فهب أنه قارئ كاتب فمالهم لم يؤمنوا به من الوجه الذي آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام على أن المنزليين

(1) سورة التوبة، الآية: 29.

(2) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق، (حديث:

6257)، أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في رواية حيث أهل

الكتاب، (الحديث: 3644)، وأحمد في المسند 4/136. وأخرجه =

= البخاري في كتاب التوحيد، باب: ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها، (الحديث: 7542).

(3) سورة العنكبوت، الآية: 46.

(4) الطبراني في معجمه.

تعملون ﴿ أي: جزاءه.

بِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَرِيعَةً لِّأُنْسِي فَأَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾.

معنى الآية أَنَّ المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه كما يحب فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلباً وأصح ديناً وأكثر عبادة وأحسن خشوعاً ولعمري أَنَّ البقاع تتفاوت في تلك التفاوت الكثير، وقد جربنا وجرب أولونا فلم نجد فيما نرنا وداروا أعون على قهر النفس وعصيان الشهوة وأجمع للقلب المتلفت، وأضمر اللهم المنتشر وأحس على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من كثير من الفتن وأضبط للأمر الديني في الجملة من سكنى حرم الله وجوار بيت الله فله الحمد على ما سهل من ذلك وقرب ورزق من الصبر وأوزع من الشكر وعن النبي ﷺ: من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد (5) وقيل: هي في المستضعفين بنكة الذين نزل فيهم ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، وإنما كان ذلك لأن أمر دينهم ما كان يستتب لهم بين ظهرائي الكفرة ﴿فإياي فاعبدون﴾ في المتكلم نحو إياه ضربته في الغائب وإياك عضتك في المخاطب والتقدير إياي فاعبدوا فاعبدون.

فإن قُلْتُ: ما معنى الفاء في ﴿فاعبدون﴾ وتقديم المفعول! قُلْتُ: الفاء جواب شرط محذوف لأن المعنى: إن أرضي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة في أرض فاخلصوها لي في غيرها ثم حذف الشرط، وعوض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص لما أمر عباده بالحرص على العبادة وصنق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد، وإن شسعت أتبعه قوله.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أي: واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المنوق، ومعناه: إنكم ميتون فواصلون إلى الجزاء ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بد من التزود لها والاستعداد بجهده.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِن الْجَنَّةِ غُرًّا يُجْرُونَ مِنْ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رِزْمٌ أَجْرٌ الْعَمَلِينَ ﴿٥٨﴾.

﴿لنؤتيهم﴾ لتنزلهم ﴿من الجنة﴾ علالي، وقرئ لتؤبئهم من الشواء وهو النزول للإقامة يقال: ثوى في المنزل وأثوى هو وأثوى غيره وثوى غير متعد فإذا تعدى بزيادة همزة النقل لم يتجاوز مفعولاً واحداً نحو ذهب، وأذهبته والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى

يقول: اليهود فلما أن نظر إليها القاهما وقال: «كفى بها حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم» (1) فنزلت والوجه ما نكرناه.

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا بَلَّغْنَا مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ اني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنزرتكم وأنكم قابلتموني بالجحد والتكذيب «يعلم ما في السموات والأرض»، فهو مطلع على أمري وأمركم وعالم بحقي وباطلكم «والذين آمنوا بالباطل﴾ منكم وهو ما تعبدون من دون الله «ووكفروا بالله﴾ وآياته «أولئك هم الخاسرون﴾ المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف كقوله: «وإننا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين» (2) كقول حسان، فشر كما لخير كما الفداء، وروي أن كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يا محمد من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت.

وَسَتَجِدُنَا أَلْمَدَابِ وَأَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ الْمَدَابِ وَإِيَّاكُمْ يَبْتِئَةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٠﴾.

كان استعجال العذاب استهزاء منهم وتكديباً والنضر بن الحرث هو الذي قال: اللهم أمطر علينا حجارة من السماء كما قال: أصحاب الأيكة فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴿ولو لا أجل﴾ قد سماه الله وبينه في اللوح لعذابهم وأوجبت الحكمة تأخيرهم إلى تلك الأجل المسمى ﴿لجاءهم العذاب﴾ عاجلاً، والمراد بالأجل: الآخرة لما روي أن الله تعالى وعد رسول الله ﷺ أن لا يعذب قومه ولا يستأصلهم وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة (3) وقيل: يوم بدر وقيل: وقت فنانهم بأجلهم.

يَسْتَجِيبُكَ بِالْمَدَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾.

﴿لمحيطة﴾ أي: ستحيط بهم.

يَوْمَ يَسْفَهُمُ الْمَدَابِ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَمْلُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿يوم يغشاهم العذاب﴾، أو هي محيطة بهم في الدنيا لأن المعاصي التي توجبها محيطة بهم أو لأنها مألهم ومرجعهم لا محالة فكانها الساعة محيطة بهم ويوم يغشاهم على هذا منصوب بمضمر أي: يوم يغشاهم العذاب كان كيت وكيت و﴿من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ كقوله تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾ (4) «ونقول﴾ قرئ بالنون والياء «ما كنتم

(4) سورة الزمر، الآية: 16.

(5) نكوه الطلبي في التفسير، وتقدم في النساء.

(1) أبو داود في المراسيل، باب: ما جاء في العلم (الحديث: 454).

(2) سورة سبأ، الآية: 24.

(3) قال الزبيعي غريب، 49/3.

مَوْتَهَا يُقُولُ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾.

استحمد رسول الله ﷺ على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفي الأنداد والشركاء عنه ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين، وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم حيث نسبوا النعمة إلى الله وقد جعلوا العبادة للصنم ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما يقولون: وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد، أو لا يعقلون ما تريد بقولك: الحمد لله ولا يفتنون لم حمدت الله عند مقالته.

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلِمَآءٌ وَإِنَّكَ الْأَخْرَجَ لَهُمُ الْحَيَاةَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾.

﴿هذه﴾ فيها ازدياد للدنيا وتصغير لأمورها وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة، يريد ما هي لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يلعب الصبيان ساعة، ثم يتفرقون ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي: ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها فكانها في ذاتها حياة<sup>(١)</sup> والحيوان مصدر حي وقياسه حيوان فقلبت آياء الثانية وأوا كما قالوا: حيوة في اسم رجل وبه سمي ما فيه حياة حيواناً قالوا: اشتر من الموتان ولا تشتري من الحيوان وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة، والاضطراب كالنزوان والتغصان واللهيان وما أشبه ذلك والحياة حركة كما أنّ الموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة ﴿لو كانوا يعلمون﴾، فلم يؤثروا الحياة الدنيا عليها.

فإن قلت: بم اتصل قوله:

فَإِنَّا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعْوًا اللَّهُ تَعَالَى لَهُ الَّذِينَ قَلَّمَا بَنَيْنَاهُمْ لَكَ إِذْ أَمَّا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾.

﴿فإنذا ركبوا﴾؟ قلت: بمحذوف دل عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم معناه هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد ﴿فإنذا ركبوا في الفلك دعوا الله﴾ مخلصين له الدين ﴿كاشنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين حيث لا ينكرون إلا الله ولا يدعون معه إلهاً آخر وفي تسميتهم مخلصين ضرب من التهمك ﴿فلما نجاهم إلى البر﴾ وأمنا عانوا إلى حال الشرك.

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾.

واللام في ﴿ليكفروا﴾ محتملة أن تكون لام كي وكذلك في ﴿وليتمتعوا﴾ فيمن قرأها بالكسر والمعنى: أنهم يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين

الغرف إما إجراؤه مجرى لنزولهم ونبوئتهم، أو حذف الجار وإيصال الفعل أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم، وقرأ يحيى ابن وثاب فنعم بزيادة الفاء.

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٨﴾.

﴿الذين صبروا﴾ على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين وعلى اذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله، لما أمر رسول الله ﷺ: من أسلم بمكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فكان يقول الرجل منهم: كيف أقدم بلدة ليست لي فيها معيشة فنزلت، والدابة كل نفس دبت على وجه الأرض عقلت أو لم تعقل.

وَدَعَاؤُنَ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّهَا لَكَاثِرَةٌ ﴿١٦﴾.

﴿لا تحمل رزقها﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حملها ﴿الله يرزقها وإياكم﴾ أي: لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أيضاً أيها الأقوياء إلا هو وإن كنتم مطيقين لحمل أوزانكم وكسبها لأنه لو لم يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل، وعن الحسن لا تحمل رزقها لا تدخره، إنما تصبح فيرزقها الله وعن ابن عيينة ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر في حوضيه ويقال: للعققع مخابئ إلا أنه ينساها ﴿وهو للسمع﴾ لقولكم نخشى الفقر والضيعة ﴿العليم﴾ بما في ضمائركم.

وَأَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿١٧﴾.

الضمير في ﴿سألتهم﴾ لاهل مكة ﴿فأني يؤفكون﴾ فكيف يصرفون عن توحيد الله وأن لا يشركوا به مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض.

اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٨﴾.

فإن قلت: الذي رجع إليه الضمير في قوله ﴿ويقدر له﴾ هو من يشاء فكان بسط الرزق وقدره جعلاً لواحد! قلت: يحتمل الوجهين جميعاً أن يريد ويقدر لمن يشاء فوضع الضمير موضع من يشاء لأن من يشاء مبهم غير معين فكان الضمير مبهماً مثله وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم.

وَأَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ زَلَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ

(١) قال أحمد: والذي يخص هذا البناء به إفادة ما لا يخلو من الحركة، كالنزوان والجولان والحيوان من ذلك والله أعلم.

التكذيب والثاني ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤا مثل هذه الجرأة.

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾.

أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين ﴿فِينَا﴾ في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصاً ﴿لنهديهم سبلنا﴾ لنزيينهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً كقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ (2) وعن أبي سليمان الداراني والذين جاهدوا فيما علموا لنهديهم إلى ما لم يعلموا وعن بعضهم من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم وقيل: إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم ﴿لمع المحسنين﴾ لناصرهم ومعينهم وعن رسول الله ﷺ من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين (3).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### سورة الروم مكية

الرَّ ١٧

القراءة المشهورة الكثيرة.

عَلَيْهِ الرُّومُ ٢٠

﴿غلبت﴾ بضم الغين وسيغلبون بفتح الياء والأرض أرض العرب لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم.

فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَنِي عَبْدِ عَلِيِّهِمْ سَابِغُونَ ﴿٢٠﴾.

والمعنى: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام، أو أراد أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه أي: في أدنى أرضهم إلى عدوهم قال: مجاهد هي أرض الجزيرة وهي أدنى أرض الروم إلى فارس وعن ابن عباس رضي الله عنهما الأردن وفلسطين، وقرئ في أداني الأرض والبضع ما بين الثلاث إلى العشر عن الأصمعي وقيل: احتربت الروم وفارس بين أنزعات وبصري فغلبت فارس الروم، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي ﷺ والمسلمين لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب، وفرح المشركون وشمتموا وقالوا: أنتم النصارى أهل الكتاب ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرن نحن عليكم فنزلت فقال لهم: أبو بكر رضي الله عنه لا يقرّر الله أعينكم فواش لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له: أبي بن خلف كذبت يا أبا فصيل

بنعمة النجاة قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة إذا أنجاهم الله أن يشكروا نعمة الله في إنجائهم ويجعلوا نعمة النجاة نزيعة إلى ازدياد الطاعة لا إلى التمتع، التلذذ وأن تكون لام الأمر، وقراءة من قرأ وليتعموا بالسكون تشهد له ونحوه قوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ (1).

فإن قلت: كيف جاز أن يامر الله تعالى بالكفر، وبأن يعمل العصاة ما شاؤوا وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه؟ قلت: هو مجاز عن الخذلان والتخليية وإن ذلك الأمر متسخط إلى غاية ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر، وعنتك أن ذلك الأمر خطأ وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه فإذا لم تر منه إلا الإياء والتصميم حررت عليه وقلت: أنت وشأنك، وأفعل ما شئت فلا تريد بهذا حقيقة الأمر وكيف والأمر بالنسيء مرید له وأنت شديد الكراهة متحسر ولكنك كأنك تقول له: فإذا قد أبيت قبول النصيحة فانت أهل ليقال: لك أفعال ما شئت وتبعث عليه ليتبين لك إذا فعلت صحة رأى الناصح وفساد رأيك.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّا مَنَا وَنَحْنُ نَحْنُ الْبَاطِلُ مِنَ حَوْلِهِمْ  
أَقْبَابُ الْبَطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعَمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾.

كانت العرب حول مكة يغزوا بعضهم بعضاً ويتفاوون ويتناهبون وأهل مكة قارون آمنون فيها لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب فنكرهم الله هذه النعمة الخاصة عليهم ووبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذي هم عليه ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلا الله وحده مكفورة عندهم افتراؤهم على الله كذباً زعمهم إن لله شريكاً.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ يَلْحَقُ لَنَا جَاهِدُهُ  
أَيُّسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾.

وتكذيبهم بما جاءهم من الحق كفرهم بالرسول والكتاب وفي قوله ﴿لما جاءه﴾ تسفيه لهم يعني: لم يتلعموا في تكذيبه وقت سمعوه ولم يفعلوا كما يفعل المراجيح العقول المثبتون في الأمور يسمعون الخبر فيستعملون فيه الروية والفكر ويستأنون إلى أن يضح لهم صدقه أو كذبه ﴿اليس﴾ تقرير لثواتهم في جهنم كقوله: الستم خير من ركب المطايا، قال بعضهم: ولو كان استفهاماً ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل وحقيقته أن الهمة همزة الإنكار دخلت على النفي فرجع إلى معنى التقرير فهما وجهان أحدهما ألا يثورون في جهنم وألا يستوجبون الثواء فيها، وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله وكذبوا بالحق هذا

(1) سورة فصلت، الآية: 40.

(2) سورة محمد، الآية: 17.

(3) نكحه الثعلبي وابن مردويه والواحد في التفسير، زيلعي /3